ملامح الشعر الفلسطينى المعاصر بعد الاحتلال

دكتر عزت ملا ابراهيمى [1]

دانشيار دانشگاه تهران

(از ص ۱۱۹ تا ۱۳٦ص)

تاريخ دريافت مقاله ۱۳۸۹/۱۱/۰٦ پذيرش ۱۳۹۰/۰۷/۱۵

الملخّص:

بعد حلول نكبة عام ۱۹٤۸م و وقوع الأراضى العربية فىقبضة العصابات الصهيونية و تشكيل الكيان الإسرائيلى الغاصب، حدثت حركة نزوح واسعة للاجئين الفلسطينيين نحو البلدان العربية و كذلك داخل الأراضى الفلسطينية فىالضفة الغربية و قطاع غزة، و منذ ذلك الحين لم ينعم هؤلاء اللاجئين بالأمن و الاستقرار السياسى طيلة حياتهم، و ما من شكّ فإنّ هذه الأوضاع المضطربة قد انسحبت آثارها على مقولات الشعر الفلسطينى الذى عاش فترة مظلمة حالكة مزّقتها حوادث التشريد و النفى و القتل و السلب و النهب و مصادرة الأراضى و الأملاك و التخريب و الدمار علاوة على معاناة سياسية مؤلمة، و قد أتاحت هذه الأحداث للشاعر الفلسطينى أن يكون شاهداً على محنة أبناء جلدته و آلامهم، فسجّلها فى أعماله الشعرية، و هو ما يفسّر الرابطة العضوية التى تولّدت بين الشعر _ بشقّيه فىداخل الأراضى المحتلة و فىالمهجر_ و بين الجماهير، فألهب أجساد الفدائيين الفلسطينيين بروح النضال و نخوة تحرير الوطن من براثن الاحتلال، و عزّز خطواتهم على طريق ترسيخ الحركة الوطنية.

الكلمات المفتاحية: فلسطين، الشعر المعاصر، النكبة، إسرائيل، اليأس

---

۱. نشانى پست الكترونيكى نويسنده: mebrahimi@ut.ac.ir

مقدّمة:

مع‌اشتعال نیران الحرب العربیة الإسرائیلیة فی‌عام ۱۹٤۸م، اضطلع الشعراء الفلسطینیون بدور مشرّف فی‌هذا الصراع المصیری، دفاعاً عن وطنهم و شرفهم، حیث لم یتوانوا عن بذل الغالی و النفیس فی‌سوح الوغی من أجل تحریر بلادهم، و لم یکن شیء أغلی من الروح لیقدّموها هدیة متواضعة لعیون الوطن، فمنهم من شرب شهد الشهادة و قدّم نفسه قرباناً علی مذبح الحریة، مثل الشاعر عبدالرحیم محمود، و منهم من تجرّع غصص التشرید و النزوح و الإقامة فی‌البلدان العربیة، و آخرین صمدوا فی‌وطنهم و أرضهم یلعقون جراح الاحتلال و مأساته. و من الطبیعی أن تؤثّر مشاهد التشرید و النفی و المجازر الجماعیة کمجزرة دیر یاسین و مظاهر الخراب و الغارات و السلب و القتل، و کذلک ظروف الحرمان و الفقر و ما تفرزه من یأس و معاناة، و أخیراً و لیس آخراً سیاسة فرض الإقامة الجبریة التی اتبعتها سلطات الاحتلال و قمع الحریات الفردیة و غیرها الکثیر من المحن، أقول کل هذه المشاهد طبعت محتوی الشعر الفلسطینی المعاصر بمرحلة الاحتلال و آثاره.

و هکذا، جسّد شعراء فلسطین معاناة شعبهم بعد النکبة جراء الاحتلال، حیث تضمّنت أشعارهم إدانة و استنکاراً لتحقّق المشروع الصهیونی بمساعدة الاستعمار العالمی القدیم، کما حاولوا أن یرسموا فی قصائدهم الجیاشة بالحزن و العاطفة لوحات تعبّر عن حالة الشوق و الحنین للعودة إلی الوطن، و ذرفهم دموع الحسرة علی فراقه. و لکن مع ذلک کان شعرهم مفعم بالأمل الوضاء، و حرارة النضال و التضحیة من أجل تحریر الوطن. و فی‌ظلّ الظروف الجدیدة التی سادت المناخ السیاسی فی‌فلسطین، انطلق الشعر الفلسطینی إلی آفاق رحبة، تجلّی فی‌تعاطی الشعراء الفلسطینیین فی الشتات بدایة الأمر مع موضوعات الحرب و المجازر و الخراب و التشرید، علاوة علی مشاهد الفقر و الجوع و الغربة التی ملأت کل زاویة من زوایا المخیمات الفلسطینیة. و العنصر البارز فی‌قصائدهم الذی أعطی نکهة خاصة للشعر الفلسطینی هو حلم العودة إلی الوطن الذی

کان یختلج فی‌وجدان الشاعر الفلسطینی القابع فی‌المخیمات. و لم یختلف الشعر فی‌ظلّ الاحتلال فی‌مضامینه و قوالبه عن شعر الشتات إلا فیما ندر. إذ کان شعرهم یطفح بالألم و المعاناة من قسوة الغربة و التشرّد و التمییز العنصری و مصادرة الأراضی و الأملاک و اعتقال مواطنیهم إلخ. فی هذه المقالة، نحاول بدورنا، أن نستطلع مختلف زوایا الشعر الفلسطینی المعاصر و ما آلت إلیه أحواله فی ظل الاحتلال، و أن نسلّط الضوء علی أهمّ موضوعاته و أغراضه.

الشعر الفلسطینی و تأثّره بظروف الاحتلال

لقد طرأت تحولات واسعة علی الشعر الفلسطینی و لا سیّما بعد الثورة العارمة التی عمّت الأراضی الفلسطینیة فی الفترة ۱۹۳٦ – ۱۹۳۹م، و کانت فترة متمیّزة تفجّرت فیها قرائح الشعراء الفلسطینیین بالعاطفة الصادقة و المشاعر العمیقة، و أصبح الشعر مرآة صادقة تعکس ما یجیش فی‌أعماق الشاعر من حسّ و إبداع و ترانیم روحانیة حلّقت به فی‌آفاق الرقی و التطور، لتتکامل أغراضه و وسائله و أسالیبه. و بعد نکبة عام ۱۹٤۸م المشؤومة و احتلال فلسطین، دخل الشعر الفلسطینی المعاصر منعطفاً جدیداً زاد من وتیرة تحولاته عن ذی قبل. بید أنّ قصائد الشعراء الذی عانوا مرارة التشرید و النزوح إلی دول الجوار العربیة، لم تشهد تغیّراً ملموساً، حیث واصلوا اجترار نفس الأسالیب الشعریة التی علتها مسحة من الحزن و الألم و الحسرة، مع فارق واحد و هو أنّهم بدأوا بتوجیه سهام غضبهم نحو الحکام العرب الذین قلبوا ظهر المجن للفلسطینیین فی أحلک الظروف و نفضوا أیدیهم من القضیة الفلسطینیة لاهثین وراء الحلول الاستسلامیة.

لقد ذرف شعراء فلسطین الدمع علی الظروف المزریة التی استجدّت بعد الاحتلال، و عبّروا عن الخوف و القلق من المصیر الأسود الحالک الذی ینتظرهم، و أیقنوا بأنّ طریق العودة إلی الوطن لا یمرّ عبر القرارات الدولیة أو الوساطات، بل من خلال فوهة البندقیة و الإرادة الفولاذیة الصلبة للشعب، و التعبئة الشاملة و توحید الصفوف و النضال المستمر

حتی تحقیق الأهداف. و لهذا نری بأنّ الشعر الفلسطینی بعد النکبة قد اشتغل بهموم الفاجعة و الأحداث المأساویة التی أفرزتها، و غابت عنه الألوان التقلیدیة المتمثلة بالغزل و الوصف و الرثاء، و نادراً ما یجد القارئ فی‌شعر هذه المرحلة ملامح من وصف الطبیعة، أو تعابیر الغزل و الوجدان، بل اقتصرت أغراضه علی الوطن و المقاومة و المعرکة و الصمود و التضحیة و الفداء ... إلخ، و شکّلت موضوعات التشرّد و اللجوء مادة رئیسیة فیه، و الحقیقة أنّ هذا الشعر قد بلغ ذروة النضج و الوعی علی ید شعراء الداخل، و بشکل عام اتّسم بالتماسک و القوة و المتانة قیاساً لشعراء الشتات، و ظهرت فیه بوادر التحدیث و الإبداع (یوسف، ص٦).

علی‌الرغم من سیطرة روح الیأس و البؤس علی أولئک الشعراء بسبب رزوحهم تحت نیر الاحتلال و بطشه. لکن مع‌ظهور المؤشرات و الحوادث المتلاحقة فی‌العالم العربی، تبدّد هذا الیأس شیئاً فشیئاً، و بدأ الأمل یعود إلی الشارع الفلسطینی لتعود معه الروح إلی الجسد الفلسطینی المنهک، و لا سیّما بعد شنّ العدوان الثلاثی علی مصر (إسرائیل و إنجلترا و فرنسا) عام ۱۹۵٦م و سطوع نجم الرئیس جمال عبد الناصر الذی کان یحظی باحترام و شعبیة واسعتین فی‌أوساط الجماهیر الفلسطینیة باعتباره بطل القومیة العربیة، و محیی طموحاتها، لذلک أخذت الآمال تنتعش فی ظلّ انحسار أجواء الیأس، و عرف الشعر الفلسطینی حالة من المخاض العسیر أسفر عن ظهور عناصر الصمود و المقاومة و الإصرار فی‌أغراضه، و قد رأی الشعراء فی‌عبد الناصر الرمز الذی رسم لهم صورة زاهیة عن المستقبل، و أنّ باستطاعته تحقیق أحلامهم الوردیة فی‌العودة إلی الوطن، و قد تجلّی ذلک بوضوح فی دیوان الشاعر محمود شفیق الحوت (ملاحم عربیة، ص۱۰۳- ۱۳۰،۲۰۳- ۲۰٦) الذی تضمّن قصائد عدیدة فی‌هذا الإطار، مثل قصیدة «ثورة النیل» التی احتوت علی ٤۵۰ بیتاً، و قصیدة «الجمهوریة العربیة المتحدة» ۱۷۰ بیتاً.

فی‌هذه الفترة تسارعت الأحداث فی‌المنطقة، حیث شهدت إعلان الوحدة بین مصر و سوریا فی‌عام ۱۹۵۸م و قیام الجمهوریة العربیة المتحدة، کما أعلن فی‌عام ۱۹٦٤م عن

تشکیل منظمة التحریر الفلسطینیة «کممثل» شرعی و وحید للشعب الفلسطینی، هذه السلسلة من التحولات أحیت الأمل فی خلاص الوطن من مخالب الاستعمار، و أذکت فی‌نفوس الشعراء الفلسطینیین المعاصرین جذوة الطموحات العریضة فی‌العودة إلی الدیار. و بقیت تلک الجذوة متقدة علی‌الرغم من هبوب ریاح الأزمات و القلاقل علی‌العالم العربی، کما حصل فی‌قمع ثورة ١٤ تموز فی العراق، و الانتکاسة التی شهدتها مسیرة الوحدة بین سوریة و مصر و التی توّجت بالانفصال، و قد کان وجود الرئیس عبدالناصر علی رأس السلطة فی مصر و شعار التحریر الذی ما فتئ یردده کفیلاً بإشعال لهیب حماس الجماهیر العربیة و قد انعکس عزماً و إصراراً علی مواصلة النضال و الصمود فی‌الشعر الفلسطینی المعاصر، و من النماذج البارزة علی ذلک الشاعر الفلسطینی محمد العدنانی الذی کان شعره فی‌بدایة الأمر یرسم لوحة قاتمة و مظلمة عن الظلم و التشرّد، لکنّه تمرّد علی هذه الحالة، و عاد لیضخّ مقولات الأمل بالمستقبل فی‌قصائده (العدنانی، فجر العروبة، ص٩٦):

صبرنا علی الجلی فنلنا بصبرنا — أمانی ذللنا الیها الروابیا
ورحنا بجمهوریة العرب نبتنی — من المجد صرحا طاول النجم عالیا
وننشیء مَعْ صنعاء أعظم وحدة — بها الأمل المنشود أصبح دانیا
لها جحفل یعنو له الدهر خاشعا — و یهرب منه عسکر الغرب خاشیا

کذلک الشاعر کمال ناصر الذی رسم فی‌أشعاره سبل الخلاص من قبضة الاحتلال الصهیونی بمساعدة عبدالناصر(ناصر، ص٢٩٨):

انها قصة شعب ضللوه
و رموه فی‌متاهات السنین
فتحدی و صمد
و تعری و اتحد
ومضی یشعل ما بین الخیام

ثورة العودة فی دنیا الظلام
قد أفاقت بعد أن طال المنام
تتململ
کفرت بالحب فی أرض السّلام
و هی تأمل
فاذا الحق نداء فی الضلوع
لهب ماج علی بؤس وجوع

أغراض الشعر الفلسطینی المعاصر

لا شکّ أنّ أغراض الشعر الفلسطینی تختلف کلیة قبل نکبة عام ۱۹٤۸م و بعدها، علی‌الرغم من أنّ الشعراء الفلسطینیین قد التزموا نفس الأسالیب الکلاسیکیة للشعر العربی، معفارق واحد و هو أنّه أصبح یتضمّن مفاهیم جدیدة تمحورت حول التشرّد و النفی و الذل و المهانة و الیأس و الاضطراب و التیه و انفراط عقد النظام الاجتماعی و الأسری و فی‌بعض الأحیان زخرت بمعانی الغضب و التمرّد، مع احتفاظ الشاعر بذکری الوطن حیة فی‌ذاکرته و التعبیر عن مشاعر الشوق و الحنین للعودة إلی أحضانه، و تصویر حجم الآلام و المعاناة التی یختزنها فی داخله من عذابات الغربة و مرارتها. و أوّل ما یتراءی للمتتبع للشعر الفلسطینی فی‌السنوات الأولی من النکبة طابع الحیرة و التیه الذی یخیّم علی الأعمال الشعریة، حیث لم یخرج من دائرة الیأس و عدم الثقة بالنفس و البکاء علی الأطلال و التفجّع کسبیل وحید للتنفیس عن الهموم و الحسرات التی تلجلج فی‌صدر الشاعر، و قد أدّی ذلک إلی فقدانه _ شأنه شأن بقیة أبناء شعبه – للتوزان النفسی ما انعکس علی قصائده و هو ما یتجلّی بوضوح فی‌قصائد أبی سلمی و محمود شفیق الحوت و برهان الدین العبوشی و غیرهم. والذی یقارن الأعمال الشعریة للشاعر محمد العدنانی قبل النکبة و بعدها یلمس هذه النقطة لمس الید، حیث آثاره الشعریة قبل

النکبة تطغی علیها مظاهر الإعجاب و الفخر، فی حین أنّ قصائده بعد النکبة مثقلة بهموم الیأس و الهزیمة و التشرّد (العدنانی، اللهیب، ص۲۳):

یا بسمة عرفتها العرب حول فمی ... غیضی فان المنی زلت بها قدمی
وأترع الیاس کأس النفس فاندفعت ... ولهی تخبط فی یم من الظلم
و کلما لاح فی شطآنه أمل ... خضت العباب بعزم غیر منثلم
حتی اذا خلتنی ادرکته رجعت ... أحلامی الغُرُّ بی مخضوبة بدمی

و لا یختلف الحال بالنسبة لبقیة الشعراء الفلسطینیین. فی‌المقال الحاضر، نحاول تصنیف الشعر الفلسطینی بعد الاحتلال و نخوض فی‌أغراضه بالتفصیل لنتعرّف مضامینه المتعدّدة.

۱. التشرّد

مع إعلان وقف إطلاق النار فی الحرب العربیة الإسرائیلیة عام ۱۹٤۹م، نزح حوالی ملیون لاجئ إلی الدول العربیة المجاورة مثل الأردن و سوریة و لبنان و العراق و مصر، کما لجأ بعضهم إلی قطاع غزة و الضفة الغربیة من نهر الأردن. و بالنسبة للذین لجأوا إلی الدول العربیة فقد تمّ إسکانهم فی مخیمات بائسة تفتقد إلی أبسط شروط الحیاة، و ما زاد الوضع إیلاماً الأوضاع المأساویة التی عاشها الفلسطینیون فی‌هذه المخیمات و عدم إصغاء الدول العربیة المضیفة إلی مطالیب اللاجئین فی‌تحسین الأوضاع هناک، الأمر الذی جعل منها (المخیمات) «منافی وطنیة» کما وصفها الشاعر یوسف الخطیب (الخطیب، ص۱٤).

ظلّ الشعر الفلسطینی المعاصر یدور حول محور النکبة و آثارها و الإفرازات التی خلّفتها، مع ترکیز أکثر علی معاناة التشرّد و النفی، و قد حزّ فی‌نفس الشاعر الفلسطینی أن یجد شعبه فجأة بلا مأوی و البطالة تنخر فی‌جسده، و هو یعیش علی المعونات العربیة و یستجدی العطف و الإحسان من الحکام العرب، هذه الأوضاع و ما أعقبها من مآسی نکأت جرح اللاجئ الفلسطینی و أضفت زیتاً علی النار المتأججة فی‌أحشائه، فراح

الشاعر الفلسطینی یندب فقد الأهل و الأحبة، و یصوّر آلامهم أروع تصویر کما تجسّد ذلک فی‌قصائد الشاعرة سلمی الخضراء الجیوسی (الجیوسی، ص۷):

راعبا ضـــــــــج الـــرنیـن ثـم ذاک الصـوت ملـحاحا حـزین

ارسلـی غـوثک شـــــرقا کـل أعـمامـک أمـسوا لاجئـــین

لقد دفعت حرب عام ۱۹٤۸ الفلسطینیین إلی التشرد و إلی أن یهیموا علی وجوههم لیبحثوا عن مأوی لهم فی‌کل زاویة من هذه الأرض، فتمزّقت أوصال الأسر و تفرّق جمعها، و وجدت فی الخیام البالیة عزاؤها الوحید، تسرد لها حکایات الیأس و تشکی إلیها آلام التشرّد و الذل و المهانة. و قد أجاد الشاعر رجاء سمرین أیّما إجادة فی وصف معاناة الحیاة الیومیة للفلسطینیین داخل الخیام و افتقادها إلی أبسط مقومات العیش الکریم (سمرین، ص۲۱):

وصمة أنت فی‌جبین الدهـــور یا خیـــاما فـــی القفر مثل القبور

أنـت مأوی للبؤس شیدک البغـی بأیـد مـخضـــوبة بالشـــرور

أنـت سفر الآلام سطرک الظـــلم عـــلی‌رسـم حـقنا المـــهدور

کـم حـوی نسـجک الارث عزیزا یـفسح الـدمع فی‌فم الدیـــجور

و فی‌نفس السیاق، یبحث الشاعر أبوسلمی (عبدالکریم الکرمی) فی‌قصائده عن أسرته المفقودة و وطنه المغیَّب (ابوسلمی، ص۸۳):

زحفت ألثم أرضی و هی باکیـة والقلـب باک و راحـت تنتشی القبل

أهلی علی الدهر تدمینی جراحهم فی‌حـبهم یتـساوی الـعذر و العذل

خیامهم فی‌مهب الریح معـولة و دورهـم مـن وراء الدمـع تبتهل

تقاذفتهم دروب العمـر دامـیة وأنکرتهم ربـوع الأهـل و المـلل

علی المشارف أعـراض ممـزقة وفی کهوف الـربی الانسان مبتذل

أطوف أحمل أنی سـرت نکبهم کأننی طیـف سار و الحمی طـلل

فی‌کل شبر شظایاهم مشـردة و تحـت کـل سماء مـعشر ذلـل

و لعلّ قصیدة «الخیام» للشاعر کمال ناصر جسّدت المعاناة التی ذکرنا أصدق تعبیر، و ارتقت بالمشاعر الجیاشة فی‌النفوس المتعبة إلی ذروتها، حیث اختلطت أحاسیس الموت بهموم التشرّد و الجوع و مرارة الذل و الموت البطئ، و رسم الشاعر فی قصیدته لوحة مؤثرة تصوّر وطأة الألم و العذاب و التنکر العربی لفلسطین و الإیغال فی‌الخیانة کما تروی فداحة الخطب بضیاع الوطن و اغتصاب الأرض (ناصر، ص ۳۰۲):

مذعورة فی رحاب المکان ... مصلوبة منسیة فی الزمان
حیری علی اوهامها فی المدی ... لاحب فی سمائها لاحنان
مشدودة فی الأرض معصوبة ... کأنما شدت بایدی الهوان
تناثرت نجومها خیبة ... فی أرضها تفضحها للعیان
أکفانها مشرعة للردی ... تطوی جراحات الردی فی‌أمان
یا خیمتی السوداء ظلی هنا ... ذکری علی أشلاء حکم جبان

من خلال مطالعتنا لأعمال الشعراء الفلسطینیین بعد الاحتلال سنلمس بوضوح انطلاق قرائحهم إلی أقصی مدیاتها لوصف المصاعب و الظروف القاسیة للحیاة الیومیة داخل المخیمات، و تجسید الآثار التی أفرزتها کترسیخها لمشاعر الاغتراب و تفسّخ النظام الأسری و الخوف و القلق من المجهول، و الفقدان التام للثقة بالنفس .... إلخ.

۲. الیأس، الدموع، الحسرات

ذکرنا آنفاً بأنّ الطابع العام للشعر الفلسطینی المعاصر فی‌السنوات الأولی للاحتلال تمثّل فی‌صور الحزن و الأسی و الیأس، و کان الشاعر الفلسطینی یسجّل أحاسیسه من خلال عدسة الاحتلال، فکانت کتاباته أحیاناً تسکب دمعاً و شجناً، و فی‌أحیان أخری تزفر الآهات و الحسرات المنطلقة من ضرام نیران الحنین للعودة إلی الوطن، و النحیب علی أطلال المجد العربی التلید، أو اختیاره لبعض الرموز و التعابیر التی تساعده علی إغماض عینیة إزاء حقائق الواقع المریر، لیحلّق فی‌أحلامه بعیداً علّها تکون بلسماً

لجروحة و آلامة، و هذا ما اختاره الشاعر محيى الدين الحاج عيسى فىقصائده حين صوّر المصير الأسود الذى حلّ ببلده (الكيالى، ص۲۳۹):

وهـا فلسطين الحبيبة قدجـــــرت كــف القــضا بمــفجع و مــفــــرق
ان قسموک فتلک قسمة جائـــر وجـد الـسياسة فيــک أن تتـــمزقـى
أو أحرقوا بالنار أهلک عنـــــوة فالله يرقــب فــعل خــب احــــمق
أرض العروبة منذ حل بها الهــدى قـــد هــودت يا عـــين بالدمع اشرقى

وكذلک زميله هارون هاشم رشـيد الـذى بكـى الفاجعـة التـى عـصفت بأبنـاء وطنـه فىقصائده مصوّراً الحدث أروع تصوير حتى تكاد نيـاط القلـب تتقطّـع مـن شـدّة الألـم (رشيد، عودة الغرباء، ص٧٤- ٧٥):

كانت لنـــا أرض نفـيء بظلـــــها و علـى أياديـنا تـــدور و تـــثـمـــــر
فـــاذا بـها فـــى ليـلة مشبـــــوبة أهـــوى بشامـــخ عـــــزنا المتـجبـــــر
و اذا بـنا مـــزق وراء عنـــائنـــــا نمـــشى فيقتلـــنا الشـــقاء و يقـــبـــــر
كم فىالخيـام مدامـــع هتـــــانة أن مـرت الذكـرى تـــمـــور و تقطـــــر
فلرب أم ودعـــــت أبـناءهـــــا يوم انتضوا سيـــف الكفاح و أشـــهـــروا
و مضوا وما عادوا سوى ذكرى لهـم محـــزونة فـــىكـــل عـــــين تذكـــــر
تركوا لهم فلـــذات اكباد مشـــــوا فىالبؤس أشبـاحا تـذوب و تصـــــهـر
ولرب حـــسناء تتـــــوق لخدرها لـهفاً فـــيقـــعدها الـــشقاء المـعســـــر.

لم يكن بالإمكان الاستمرار على هذه الحالة، فقد حاول بعـض الـشعراء الفلـسطينيين البحث عن مخرج لتهدئة أحـزانهم و عـواطفهم، فلجـأوا إلـى تجـسيم هـذه الأحـزان و المشاعر فىقوالب طبيعيـة متعـددة، لإحـساسهم بوجـود وجـه مـشترک يجمـع الإنـسان بالمظاهر الطبيعية المحيطة به، و بذلک استطاع الشاعر الفلسطينى التخفيـف مـن أحمالـه. و هو ما فعله الشاعر محمود سليم الحوت

فی‌قصیدته «النخل البخیل» حیث استطاع أن یرسم علاقة وثیقة و حمیمة بینه و بین النخلة، عبر وصفها بأنّها غریبة و شریدة عن أرضها و وطنها، لیکشف عن‌آماله المنسیة من خلال النخلة. یعبّر الشاعر فی‌هذه القصیدة بصدق و عذوبة عن حیاة الشعب و دموعه و حزنه، لیستعیض عن الدمع و الحسرة بموقف «المتأمّل الحزین». و فی‌قصیدة أخری له بعنوان «الطیر الغریب» یناجی الطیر باعتباره رسول یبثّ إلیه همومه و یسأله عن أحوال الوطن و ما جری علیه، و یحمّله أشواقه و حبّه إلیه (الحوت، محمود سلیم، صص۷٤،۱۱۱).

وهناک من الشعراء الفلسطینیین من حمل قلم العتاب و الشکوی ضدّ الزمن بسبب ظروف الیأس التی خلقها الاحتلال، مقتفین أثر الشعراء العرب فی‌الماضی فی‌تحمیل الدهر وزر آلامهم و عذاباتهم (الحوت، محمود شفیق، ص۱۷۷):

لله ما فعل الظلم الغشوم و ما — أنزلت یا دهر من حقد و من نقم

کیف انتصرت علی شعب و ما وهنت — منک القوی فی الضروس العارم الضرم

و البعض الآخر رأی فی‌تخاذل الحکام العرب و استسلامهم لإسرائیل سبباً لأوجاعهم و کوارثهم کما حصل مع‌الشاعر محمد العدنانی الذی أطلق العنان لقلمه فی‌اللوم و الشکوی (العدنانی، اللهیب، ص۱٤۱- ۱٤٤):

أیا زعماء قد حیرت فیکم — فلم اعرف لکم وجهاً مبینا

علام أری شعوبکم جمیعا — یبارون السحاب ندی ولینا

أ أنشأهم اله الناس مسکاً — وأنشأکم نفایات وطینا

فمالکم تخاذلتم و إنا — لیسعدنا اَذا کم مجمعینا

و ان شئتم بنا التنکیل یوما — و محق نفوسنا فقراً و هوناً

فانا نشرب الازراء صرفا — ولو حملت کؤوسکم المنونا

ولکن حاذروا ألا تجیئوا — بها یوم الهلاک موحدینا

۳. الحيرة و التشرّد

يغلب على الشعر الفلسطينى بعدالاحتلال و لا سيّما فى سنواته الأولى، طابع الحيرة و التشرّد، حيث لا يملك الشاعر أمامها إلاّ البكاء و التفجّع، و التعبير عن الحنين و الشوق إلى الديار، و قد استثارت هذه الحيرة ردود فعل متباينة من الشاعر، تراوحت بين النقد اللاذع للأنظمة العربية و التهكّم من أولئک الذين تعاونوا مع الصهاينة و سهّلوا لهم مهمّتهم، كما يتجلّى ذلک فى أعمال الشاعر محمد العدنانى، على سبيل المثال فى قصيدة «حديث الروح» أو «الجارة الدهيا» أو «جود لبنان» (المصدر نفسه، ص۱۱۷،۱۳۵،۱۳۷).

ومنهم من استسلم لعجزه و حيرته بسبب هول الفاجعة و عمق الكارثة، و راوح مكانه دون أن يحرّک ساكناً، فتملّكه شعور الإحباط و الخوف و التشاؤوم و النفور من الحياة، كما يعبّر عن ذلک الشاعر ناصر عيسى فىقصائده، حيث يجد نفسه هائماً فىالمتاهات و المنعرجات و أنّ جميع الأبواب مغلّقة بوجهه (الأديب، صص۲۸-۹):

أصبحت أخشى كل بارقة و أفر من نفسى الى نفسى
يا دهر حسبى فىالحياة شقا أو لم يحِن مثواى فىرمسى

تتّخذ الحيرة و التشرّد معنى أكثر شفافية و وضوحاً فى أشعار عصام حماد، فبعد مشاكل التشرّد و البعد عن الوطن و الأهل و الخلاّن، يجد الشاعر نفسه وسط ظلام حالک يسير بغير هدىً (الكيالى، ص۲٤۸- ۲٤۹):

يا ليل أين الدار والربع و الأهل
أين الحمى و الجار و كيف انطوى الشمل
و انفضت السمار يا ليل يا ويل

يا ليل أين مرابع الأنس التى ودعت فىغالى ثراها مهجتى
أحببتها حبى الحياة و لم اكن لأطيق فرقتها ولاهى فرقتى
طيفان ما برحا خيالى لحظة وطنى الذى ضيعته وطفولتى
أين العذارى الحور فى جناتها يخطرن بين تأود و تلفت

أین الربی الشماء و الشط و المنهـل
و الماء و الخضرا و الشادن الأکحـل
و الروضة الغناء یا لیل مـن أسال

۴- المقاومة و التضحیة فی‌سبیل الوطن

لم یأل الشعراء الفلسطینیون جهداً من تسجیل حضور أدبی قـوی فـی‌ظـلّ الاحـتلال الصهیونی، حضور قلب المعاییر التی تحکم مسیرة الشعر الفلسطینی المعاصر رأسـاً علـی عقب، إذ لم تعد موضوعات اللجوء و التشرّد القضایا الرئیـسیة فـی‌الـشعر المعاصـر، بـل وقف رواد الشعراء من هذا الجیل یتأمّلون بـأمّ أعیـنهم مـا یعانیـه مـواطنیهم مـن مآسـی الاحتلال داخل الأراضی الفلـسطینیة مـن قتـل و تـشرید و مجـازر و تعـذیب و نفـی و مصادرة للأراضی و الممتلکات. و الحقیقة أنّ شعراء الداخل بحکم قربهم من الأحـداث و معایشتهم لها استطاعوا أن یقدّموا شعراً أکثر نـضوجاً و تماسـکاً، فمهّـدوا بـذلک لتعبئـة الإرادة الوطنیة للتصدّی لمشاریع التوسّع الإسرائیلیة و الوقوف بوجـه محـاولات التهویـد للمناطق العربیة. فی‌هذه الفترة راودت هـذا الجیـل مـن الـشعراء أفکـار النـضال المـسلح لتحریر الوطن، و قد کانوا هم أنفسهم مناضلین وضعوا قـضیة مقاومـة العـدو علـی رأس اهتماماتهم و نشاطاتهم. و حاولوا تجسید المصاعب و المآسی التی یعـانی منهـا شـعبهم عبر فنّهم، لینفخوا روحاً جدیدة فی النضال الفلسطینی و بالتالی تهیئة الأجواء لتعبئة شاملة و ثورة عارمة، و هو ما نلمسه جلیاً فی‌قصائد هارون هاشم «العودة ثانیـةً»، حیـث یـسلّط الضوء علی مظاهر الفقر و التشرّد الفلسطینی، محییاً فی نفس الوقـت إرادتهـم الـصلبة، و شجاعتهم فی الدفاع عن الوطن و السعی لتهیئة أسباب العودة (رشید، الأعمـال الـشعریـة الکامله، ص۹٦):

أخـی مهـمـا ادلـهـم اللـی ـل سـوف نـطالـع الـفـجرا
و مـهما هـدنا الفـقـر غـداً سنـحطـم الفـقـرا
ستـعـلو صيـحة الاحـرار يـوم نـطالـب الثـأرا
و تمـضی جلـجلات الـرع ب ان بـراً و ان بـحـرا
سنـمشی مـلء عـين الشـم س نـحـدو ركبـها الحـرا
و نـطلع فـی الغد الآتـی نـجـوما حـرة زهـرا
غـداً يـوم انطـلاق الشـع ب يـوم الـوثبـة الكبـری
غـداً فـی زحـمة الاقـدا ر سـوف نـحـقـق الأمـرا
فـلـسطيـن التـی ذهبت سترجـع مـرة أخـری

فی‌قصيدة أخری بعنوان «نداء فلسطين»، يطلق صرخة إلـی شـباب فلـسطين لتـصعيد النضال و تحطيم جميع القيود و الأغلال، و بذل الغـالی و النفـيس فـی سـبيل الـوطن، و يدعوهم أن لا يغفلوا لحظة واحدة عن واجبهم المقدّس فی‌تحرير الأرض المغتصبة و الثأر من الأعداء، مبدياً تفاؤله بالنصر الأكيد (المصدر نفسه، ص۱۹۹):

شبـاب الفدا يا شبـاب الفـدا فلسطين نادت فلبوا النـدا
ودكوا الحصون حـصون العـدا شباب الفدا يا شباب الفـدا
ألا مـرحـبـا بالـكفاح و يا ألف لبـيک داعـی السلاح
سنـمضی و نـمضی نـشق الـرياح و نقتحم الهول ما أرعـدا
نمـوت....نمـوت و تـحيا لـنا منار الخلـود فلسطينـنـا
مـدافـعنـا و السـلاح وأبطالـنا و الشبـاب الأبـی
ستطرد من أرضـها الأجنبـی وتلقی به فـی غـمار الـردی

ولا شکّ إنّ هذه المفاهیم نابعة من أحاسیس الشاعر الصادقة و قراءته المتأمّلة للواقع، و قدرته علی إیصال رسالة بناءة فی‌تلک الظروف المضطربة، و من الواضح أنّه لعب دور المناضل الصادق مع‌نفسه و مع شعبه، و من هنا اتّسم شعره بلون الخطابة و الحماسة.

مع‌ظهور جیل شعراء المقاومة، دخلت إلی الشعر الفلسطینی المعاصر مفاهیم جدیدة مثل المقاومة، الفدائی، الشهید، النضال، التحریر...إلخ، و ابتدع الشعراء تبعاً لذلک وسائل و أدوات فنیة جدیدة تمکّنهم من نقل هذه المفاهیم بدقة و إتقان، فتحوّل الشاعر الفلسطینی فی‌أعماقه إلی مناضل ثائر حمل روحه علی کفّه، فخلق بذلک علاقة حمیمة و قویة مع مشاهد القتال و الجهاد، و لا یخفی أنّ الشاعر قد أثّر فی‌هذه المشاهد و تأثّر بها، بمعنی أنّ شعر المقاومة أصبح فی‌خدمة النضال الوطنی، و فی‌المقابل، فإنّ النضال المسلّح ترک تأثیره العمیق فی‌تألّق الحرکة الشعریة و ازدهارها (یوسف، ص۸). و فی‌الحقیقة، فإنّ شعر المقاومة حمل رسالة تاریخیة خطیرة علی عاتقه، تضمّنت مفرداتها صیانة وجدان الشاعر و أحاسیسه من مظاهر الهزیمة و الیأس و الحرمان و تحطّم رموز الحضارة و التاریخ فی‌أرضه، و إبداع القصائد التی تستصرخ الصحوة و الصمود و التضحیة و الکفاح المسلح و تعبئة الجماهیر للتصدّی للمحتل بکل ما تملک من إمکانات و طاقات، و الاتکاء إلی قدرات الشعب بدلاً من اللجوء إلی الحکام العرب. و قد عبّرت فدوی طوقان فی‌قصائدها عن هذه المعانی بوضوح و دقة، مع‌شعور بالإحباط و المهانة بسبب استسلام العرب أمام الصهاینة، لکنّها مع‌ذلک تهیب بالأحرار من الشباب الفلسطینی أن یهبّوا هبة رجل واحد لتحریر وطنهم من نیر الاحتلال (طوقان، ص٥٤٥):

یا فلسطین اطمئنی
أنا والدار و أولادی قرابین خلاصک
نحن من أجلک نحیا و نموت ....

نفس الحال بالنسبة للشاعر توفیق زیاد الذی ما فتأ یطلق قصائده التی تشحذ الهمم من أجل المقاومة و الصمود و السعی لإبقاء الکیان العربی فی فلسطین حیاً نابضاً، و

الحفاظ على التراث الحضارى لأرض الآباء و الأجداد. و قد أنشد قصائده على لسان الأشاوس الذين حملوا مشعل المقاومة لينيروا درب المناضلين (ص۱۹۷- ۲۰۱):

كأننا عشرون مستحيل
فى‌اللد ... فى‌الرمله ... و الجليل
هنا على صدوركم باقون كالجدار
و فى‌حلوقكم
كقطعة الزجاج... كالصبار
و فى‌عيونكم زوبعة من نار
إنا هنا باقون
فلتشربوا البحر
نحرس ظل التين و الزيتون
و نزرع الأفكار... كالخمير فى‌العجين
برودة الجليد فى‌أعصابنا
و فى‌قلوبنا جهنم حمرا
و اذا عطشنا نعصر الصخرا
و نأكل التراب ان جعنا
و....لانرحل....
و بالدم الزكى لانبخل
هنا...لنا ماض و حاضر و مستقبل

استنتاج

نستشف ممّا ذكر عن خصائص الشعر الفلسطينى المعاصر بعد الاحتلال ملاحظات رئيسية نجملها فى:

- التركيز على عروبة الشعب الفلسطينى و الكيان الفلسطينى.

– السعى لتجاوز حالة اليأس و الإصرار علىالبقاء داخل الأراضى المحتلة.

– شحذ الهمم من أجل تحرير الأرض من براثن الاحتلال و عودة اللاجئين إلى الوطن.

– دحر المخططات الإسرائيلية الرامية إلى تهويد الأراضى الفلسطينية.

– التنديد بقرار الجمعية العامة القاضى بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية و يهودية.

– تصوير أبعاد المأساة التى حلّت بالشعب الفلسطينى بعد نكبة ١٩٤٨ من تشريد و نفى و مجازر و نهب و قتل .... إلخ.

– التنديد بتأسيس دولة إسرائيل فىقلب الأرض العربية.

– التنديد بالنشاطات المحمومة للمحافل الدولية المتمثلة فى إرسال الوسطاء الدوليين أو تشكيل اللجان و عقد الندوات العقيمة.

– تجسيد الشوق العميق الذى يتملّك الفلسطينيين فى العودة إلى وطنهم.

– استذكار الموقع التاريخى و الدينى لفلسطين و التغنّى بأمجاد الحضارة العربية التليدة.

– توجيه الغضب و الحقد المقدس للجماهير الفلسطينية صوب المحتلين الصهاينة، أو الحكام الخونة العرب.

– دعوة الجماهير العربية إلى الثورة و النضال و التمسّك بعرى الوحدة و التضامن باعتبارها السبيل الوحيد لتحرير فلسطين من نير الاحتلال.

– استعراض المناسبات و الأحداث المختلفة من قبيل مشروع الوحدة بين مصر و سورية و العدوان الثلاثى على مصر، حرب تحرير الجزائر، قمع الثورة فى العراق، تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية و سائر المنظمات الأخرى.

– دراسة مختلف جوانب المرأة الفلسطينية و بيان مكانتها المرموقة فى مسيرة النضال و حركة المقاومة.

– بالإضافة إلى التطرّق لبعض الموضوعات المتفرقة مثل الوصف و الغزل و الرثاء.

المراجع:

ابوسلمی (عبدالکریم الکرمی)، *أغنیات بلادی*، مطبعة الترقی، دمشق، ۱۹۵۹.

الأدیب، *دیسمبر و مایو*، *الأعداد* ۹ و۲۸، بیروت، ۱۹٦٦.

الجیوسی، سلمی *الخضراء*، *العودة من النبع الحالم*، دارالآداب، الطبعة الأولی، بیروت، ۱۹٦۰.

الحوت، محمود سلیم، *اللهب الکافر*، *دارالکاتب العربی*، بیروت ، ۱۹۵٤.

الحوت، محمود شفیق، *ملاحم عربیة* ، *دارالکاتب العربی*، بیروت، ۱۹۵۸.

الخطیب، یوسف، *دیوان الوطن المحتل*، *دارفلسطین*، الطبعة الأولی، دمشق، ۱۹٦۸.

رشید، هارون هاشم، *الأعمال الشعریة الکاملة*، دارالعودة، بیروت، ۱۹۸۱.

ـــــــــــ، عودة الغرباء، *المکتب التجاری*، الطبعة الأولی، بیروت، ۱۹۵۳.

زیاد، توفیق، *دیوان*، *دارالعودة*، بیروت، ۱۹۷۰.

سمرین، رجاء، *الضائعون*، *مطابع الشرکة الصناعیة*، عمان، ۱۹٦۰.

طوقان، فدوی، *دیوان (اللیل و الفرسان)* ، دارالعودة، بیروت، ۱۹۵٤.

العدنانی، محمد، *فجر العروبة*، *المکتبة العصریة*، بیروت، ۱۹٦۰.

ـــــــــــ، *اللهیب*، *المکتبة العصریة*، الطبعة الأولی، بیروت، ۱۹۵٤.

الکیالی، عبدالرحمن، *الشعر الفلسطینی فی نکبة فلسطین*، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر، بیروت، ۱۹۷۵.

ناصر، کمال، *الآثار الشعریة*، *مقدمة*: احسان عباس، المؤسسة العربیة للدراسات و النشر،الطبعة الأولی، بیروت، ۱۹۷٤ .

یوسف، یوسف، *دور الشعر فی المعرکة*، *الاتحاد العام للکتاب*، تونس، ۱۹۷۷.